الفصل الثالث

الحياة الحضرية
في سورية الفرنجية

أنظمة الحكم في مملكة القدس

لقد كان نظام الحكم الملكي للفرنجة في القدس إنجازاً خالصاً للملك لبودوان الأول Baudouin I^er (1100–1118 م) ، الذي كان أول ما فعله أن قضى على محاولة البطريرك دَمبير Daimbert لتطبيق الحكم التيوقراطي (أي تسلّط اللاهوتيين) . وبدءاً من حكم بودوان الثاني (1118–1131 م) استُبدل نظام الانتخاب نهائياً بالنظام الوراثي في الحكم ، وذلك دون تطبيق شريعة الإفرنج[1] التي لا تبيح المُلك للنساء .

لذا انتقل التاج عن طريق النسوة من أسرة ريتيل Rethel (1118–1131 م) إلى أسرة دانجو d'Anjou (1131–1186 م) ، ثم إلى آل لوزينيان Lusignan (1186–1192 م) ، ثم إلى آل شامپانْيْ Champagne (1192–1197 م) ، ثم آل لوزينيان ثانيةً (1197–1205 م) ، ثم آل مونفيراّ Montferrat (1205–1212 م) ، ومنهم إلى آل بريين Brienne (1210–1225 م) ، وأخيراً إلى أسرة سوابيا[2] Souabe المالكة (1225–1268 م) ، ليعود في النهاية من جديد إلى آل لوزينيان (1269–1291 م) .

---

(1) تعرف هذه الشريعة باسم loi salique ، وهي قانون فرنسي قديم يمنع النساء من تملّك الأرض بالميراث ، أو التوصل إلى العرش الملكي .

(2) سوابيا هو اللفظ الفرنسي لكلمة Schwaben (شڤابن) بالألمانية ، وهو اسم مقاطعة في ألمانيا ، تشمل اليوم قسماً من المنطقة الواقعة إلى الجنوب الغربي من باڤاريا Bayern ، وعاصمتها التاريخية مدينة آوكسبورك Augsburg . وقد كان الإمبراطور الجرماني فريدريك الثاني ينتمي إلى أسرة شڤابن الحاكمة .

ومع ذلك ، وإن كان هذا النظام الملكي وراثياً ، فإن النظام الإقطاعي قد سبقه في ذلك . فكانت مملكة القدس دولة إقطاعية تتمثل فيها السيادة أقل في الملك مما هي في هيئة النبلاء المتشكّلة ضمن «محكمة المُقطعين» *Cour des Liges* أو «المحكمة العليا» *Haute Cour* .

وكان يترتّب على الملك عند تنصيبه ، أداء قَسَم أمام المحكمة العليا يُلزمه باحترام الامتيازات والحصانات الإقطاعية . ولم يكن في وسعه تشريع القوانين أو منح الإقطاعيات من تلقاء نفسه دون الحصول على الموافقة المسبقة من المحكمة العليا ، وهذا ما تبرزه لنا بكل وضوح مجموعة «دواوين القُدس الاشتراعية»[1] *les Assises* .

وطالما توسّد عرش المملكة شخصيات قوية ، كما جرى منذ عام 1100 إلى 1185 م ، فقد بقيت كلمة التاج نافذة بالرغم من أنظمة «الدواوين الاشتراعية» . ولكن عقب كارثة عام 1187 م (معركة حطّين) ، أخذت سلطة الملك تضمحلّ بازدياد . وبعد طرد أعوان الملك الإمبراطور فريدريك الثاني (عام 1232 م) ، بدا وكأن النظام الملكي قد أُلغي ، وأضحت «المحكمة العليا» التي تزعّمتها أسرة إيبلان Ibelin (وهم أسياد بيروت وأرسوف ويافا) هي الحاكمة الحقيقية لمملكة القدس اللاتينية .

أما سورية الفرنجية فلم تعد بعد ذلك سوى جمهورية إقطاعية ، تتألف من اتحاد عدة إقطاعات . ومارست أسرة إيبلان فضلاً عن ذلك تأثيراً مفعولاً راجحاً على جمعية رهبان سان أندريه St. André التي تولّت تنظيم مدينة عكّا عام 1232 بشكل مشترك . وطوال فترة حكم جان الأول ديبلان Jean I^er^ d'Ibelin ، الملقب بـ «سيّد بيروت العجوز»[2] الذي حكم هذه المدينة من عام 1197 إلى 1236 م ؛ ثم في فترة حكم ابنه باليان الثالث Balian III سيّد بيروت من عام 1236 إلى 1247 م أبقى هذا النظام غير المألوف على قدر كاف من التماسك ، ولكنه من بعد عام 1247 تردّى كما رأينا في مهاوي التجزئة .

---

(1) تُعرف هذه الدواوين في الفرنسية باسم : *les Assises de Jérusalem* ، وهي مجموعة من القوانين وأنظمة الحكم الصادرة في مملكة القدس وقبرص اللاتينية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد . راجع حول ذلك : *Grand Larousse Encyclopédique* .

(2) وردت العبارة في الأصل بالفرنسية : «le vieux sire de Beyrouth» .

ولقد وصلتنا نظرية الحقوق والواجبات المتعلقة بكل من التاج والأمراء الإقطاعيين عن طريق «دواوين القدس الاشتراعية» . غير أن هذه «الدواوين والأعراف» قد تلاشت منذ كارثة عام 1187 م . ولقد استعيض عنها في القرن الثالث عشر بعدة مواثيق ، أشهرها ميثاق فيليب دى نوڤارا[1] ، وهو ميثاق في القانون الإقطاعي كتب قبل عام 1253 م . كما ظهر «كتاب جان ديبلان»[2] (كونت يافا) الذي كُتب نحو عام 1253 م ، كنسخة مطوّرة عن ميثاق نوڤار . ومما يُذكر أيضاً : «كتاب الملك»[3] و«كتاب مؤتمرات البورجوازيين»[4] (ما بين عامي 1229–1244 م) .

تبيّن لنا هذه النصوص أربع محاكم قضائية وسياسية : «المحكمة العليا» *la Haute Cour* ، وهي محكمة النبلاء المذكورة آنفاً التي تضطلع بشتى القضايا المتعلقة بشؤون النبلاء ؛ و«محكمة الورجوازيين» *la Cour des Bourgeois* ، التي تتألف من 12 محلّفاً أو وجيهاً ، وتحكم ما بين الناس الأحرار ذوي الأصول العاميّة ؛ و«محكمة الرئيس» *la Cour du Raïs* ، المؤلفة من محلّفين من أبناء البلاد الأصليين ، والمختصة بالفصل في نزاعات أهالي البلاد ؛ وأخيراً «المحكمة الإكليركية» (الكنسية) *la Cour ecclésiastique* . نشير كذلك إلى وجود دار قضائية تجارية هي «محكمة التفويض» *la Cour de la fonde* ، ودار قضاء بحرية هي «محكمة السلسلة» *la Cour de la chaîne* .

نظم الدفاع في سورية الفرنجية
المنظمات العسكرية

كان جيش مملكة القدس يتألف من الجنود الإقطاعيين غير النظاميين ، كما كان الحال في فرنسا آنذاك . وكان يتضمن كذلك فرساناً ومرتزقة ، الذين كانوا يُنتقون بالأخص من السوريين . ولا ننسى أن نذكر قوى الخيالة الخفيفة المؤلفة من مسيحيي البلاد ، المسماة (التُرْكُبْلية) *les Turcoples* .

---

(1) بالفرنسية : le traité de Philippe de Novare .

(2) بالفرنسية : *Le Livre de Jean d'Ibelin* .

(3) بالفرنسية : *Le Livre au roi* .

(4) بالفرنسية : *Le Livre des assises des bourgeois* .

وقد عُزّز النظام الدفاعي للدول الفرنجية بسلسلة متماسكة من القلاع الموزّعة في المناطق الأكثر تهديداً بالخطر . نذكر منها مثلاً في مملكة القدس : إسكندرونة[1] Scandélion ، وعثليث[2] Château-Pèlerin ، وشقيف أرنون Beaufort ، وتبنين le Toron ، وهُونين Châteauneuf ، وصفد Saphet ، وقلعة القرين Montfort ، وفي شرقي الأردن قلعة الكرك le Crac de Moab .

أما في كونتيّة طرابلس : فحصن الأكراد[3] le Crac des Chevaliers ، وصافيتا Chastel-Blanc . وفي إمارة أنطاكية : حصن المرقب Margat ، وقلعة صهيون[4] le Câteau de Saone .

وتنقسم العمارة العسكرية لهذه القلاع إلى أسلوبين اثنين :

الطراز الأول : اتخذه فرسان المشفى (الإسبتارية) les Hospitaliers ، ويتألف من قلاع مشيدة بشكل ناتئ[5] على هضاب شديدة الانحدار ، ولها سور مزدوج محصّن بأبراج مستديرة ، وهذا الطراز يشابه حصون السِّين la Seine واللّوار la Loire في القرنين الحادي عشر والثاني عشر . ومن أمثلته : قلعة المرقب وحصن الأكراد .

الطراز الثاني : اتخذه فرسان الهيكل (الدّواية) les Templiers ، وهو مستوحى من الحصون البيزنطية أو العربية ، ويتميّز بأسوار (بَدَنات) محصنة بأبراج مضلّعة ، وهذه الأسوار تتقدّمها خنادق عميقة . ومن أمثلة هذا الطراز : عثليث وصافيتا .

---

(1) إسكندرونة حصن صليبي يقع إلى الجنوب من صُور عند رأس الناقورة ، ذكر الرحالة ابن جبير الأندلسي عام 580 هـ في رحلته (ص 277) : حصن الزّاب وقرية اسكندرونة . ولقد جهدنا لتحقيق تسميات هذه الحصون والقلاع بالفرنسية مع مقابلاتها بالعربية ، وهو ما يسبّب في العادة الكثير من الالتباس عند الترجمة .

(2) عثليث (عتليت) بلدة تقع على بعد 16 كلم جنوبي حيفا على الساحل الفلسطيني .

(3) تقدّم ذكر حصن الأكراد أنه المعروف في أيامنا بقلعة الحصن ، إلى الشرق من طرطوس بين حمص وصافيتا . بناه الصليبيون عام 1142 م ، وبقي بيد الإسبتارية طويلاً وعجز عن فتحه الأيوبيون ، إلى أن قام بفتحه الظاهر بيبرس عام 670 هـ (1271 م) .

(4) هي المعروفة اليوم بقلعة صلاح الدين ، قرب بلدة الحفّة شرقي اللاذقية . أما تسميتها الشائعة بقلعة صهيون فلا وجه لها ، فما علاقة Saone باسم جبل صهيون في القدس ؟

(5) العبارة بالفرنسية : en saillant .

كان الدفاع عن الأرض المقدّسة الغاية التي كرّست من أجلها منظمات الفرسان المترهبنين كل طاقاتها ، وقد قامت هذه المنظمات بدور كبير الأهمية في حياة الشرق اللاتيني ، من إسبتاريّة وداويّة وفرسان توتونيين[1] .

فأما منظمة مشفى القديس يوحنا St. Jean الأورشليمي[2] ، وهي منظمة خيريّة تعود إلى عام 1070 م ، فقد تمت إعادة تشكيلها بدءاً من الحملة الصليبية الأولى على يد المعلّم جيرار الطوباوي[3] Gérard le bienheureux (حوالي 1100-1120 م) . ثم قام خلفه ريمون دى پوي Raymond de Puy بتحويلها إلى منظمة عسكرية .

أما منظمة الهيكل التي كانت عسكرية منذ بدايتها الأولى ، فقد تأسست عام 1118 م على يدي الفارس الشامپاني هوك دى پايان Hugues de Payens . وكان فرسان الاسبتارية يتّشحون بمعاطف سود في أيام السلم ، وحُمر في أيام الحرب وعليها صلبان بيضاء ؛ وأما الداويّة فيلبسون معاطف بيضاً ذوات صلبان حمراء .

أما منظمة الفرسان التوتونيين فقد تأسست عام (1143 م) وأعيد تنظيمها عام (1198 م) . ودخلت هذه المنظمات الثلاث في سلك الفروسية chevalerie ، وكان على رأس كل منها معلّم أكبر[4] ينتخبه مجلس الرهبان .

واتخذت هذه المنظّمات العسكرية شكل جيش دائم في الشرق اللاتيني ، وعهد الحكام إليهما بأخطر المناصب وأهمها . وتبعاً لذلك ، تسلّم الإسبتارية زمام حصن الأكراد (عام 1142 م) والمرقب ، وتسلّم الداويّة حصن عثليث (عام 1218 م) وصفد (بعد 1240 م) وصافيتا .

---

(1) التوتونيون : هم سكان جرمانيا الشمالية ، أما منظمة الفرسان التوتونيين فكانت منظمة خيرية ثم تحوّلت عام 1198 م إلى عسكرية ، واقتصرت على أفراد الطبقة الأرستوقراطية من الألمان .

(2) بالفرنسية : l'Hôpital de Saint-Jean de Jérusalem .

(3) الطوباوي : شخص من الأموات ، أقرّت الكنيسة أنه من الأبرار وفي رتبة دون رتبة القديسين .

(4) هذه هي الترجمة الحرفية لعبارة le grand maître التي كانت تطلق على مقدّمي الإسبتارية والداوية ، غير أننا في هذا الكتاب آثرنا ترجمتها بعبارة : السيّد الأكبر . وفي كتاب گروسيه الموسّع عن الحروب الصليبية تفاصيل وافية حول هؤلاء المقدّمين .

ومن جرّاء تفوّق القدرات القتالية العالية والشجاعة البطولية لهذه المنظمات الثلاث ، نعمت سورية الفرنجية بفوائد عظيمة ، إلا أن عنفوانهم الزائد وتعطّشهم للإثراء (وكانوا يقيمون المصارف ، الدّاوية بشكل أساسي) ، وكذلك عدم انصياعهم لأحد ، مراراً ما عاد بالوبال على الدولة الفرنجية . وفوق ذلك لم يكن التنافس التقليدي الدائم والاشتجار بين الدّاوية والإستبارية بأقل ضرراً وإشاعة للقلاقل .

أنظمة الحكم في إمارة أنطاكية

على الرغم من أن ملك القدس كان مراراً ما يقوم بدور الوصي على الأقليات الفرنجية الأخرى ، بقيت إمارة أنطاكية على الدوام في حالة استقلال تام عن المملكة . وكان لهذه الإمارة مجالسها المنفردة ولها بلاط بارونات وبلاط بورجوازيين[1] .

ولما كانت إمارة أنطاكية قد تأسست على أيدي أسرة حاكمة نورماندية ، فقد احتفظت بالطابع النورماندي في مؤسسات حكمها . وعلى عكس ما كان سائداً في الدول الفرنجية الأخرى في المشرق ، بل بشكل يقارب الملوك النورمانديين في انكلترة وإيطالية الجنوبية ، تجنّب أمراء أنطاكية التنازل عن مساحات شاسعة من أملاكهم لصالح المُقطَعين الكبار ، الأمر الذي أبقى لهم الاحتفاظ بمركزية نسبية أكبر بكثير مما لدى ملوك القدس أو كونتات طرابلس .

الاستيطان الفرنجي والسكان المحلّيون

لم تكن سورية الفرنجية على وجه الإطلاق في نظر الفرنجة مستوطنة للإعمار ، فبقيت الهجرة الفرنجية مقتصرة على الطبقات الإقطاعية ، أي على طبقة الفرسان والطبقة البورجوازية المدنية ، وأما سكان الأرياف فما برحوا يتألفون من الأهالي السوريين المسيحيين أو المسلمين .

---

(1) بورجوازي bourgeois بالمعنى اللغوي المستخدم هنا للكلمة تعني شخصاً من سكان المدن من الطبقة المتوسطة ، وهي التي تعمل عادة بالتجارة .

وإن كانت سورية الفرنجية كناية عن مستعمرة طبقات ، فالأمر يتبدّى بالطبقات التي رسخت بشكل نهائي وتكيّفت مع الأوساط السائدة ، دون أن تكون راغبة في العودة . يروي المؤرخ فوشيه دى شارتر[1] Foucher de Chartres عام 1125 م عند كلامه على الفرسان ورجال الإكليروس والبورجوازيين المقيمين في الأرض المقدّسة : «إن الرجل الذي كان إيطالياً أو فرنسياً بالأمس أضحى اليوم جليلياً أو فلسطينياً ، وتحوّل ابن رانس Reims أو شارتر Chartres إلى مواطن سوري أو أنطاكي . إننا اليوم قد نسينا مواطننا الأصلية ، فلماذا نعود إلى الغرب طالما أن الشرق يفي باحتياجاتنا ؟» .

ومع ذلك ، كان هناك العديد من مولّدي الزواج بين رجال الفرنجة والنساء السوريات ، وقد كان يلقّب هؤلاء بـ«الأمهار» *les poulains* ، ثم أصبح هذا المصطلح شاملاً لكل الفرنجة المولّدين (créoles) .

كان المسيحيون السوريون يتبعون ثلاث كنائس : اليعقوبية (العقيدة الوحدانية ، على المذهب السّرياني) ، والنسطورية (عقيدة حلول شخصين في المسيح ، على المذهب السّرياني) ، وكنيسة الروم الأرثوذوكس . وكان اليعاقبة هم الغالبين في مملكة القدس وكونتيّة طرابلس ، وكذلك في بضعة مقاطعات حول أنطاكية . وقد ترك لنا اثنان من أحبار هؤلاء اليعاقبة مؤلفات تاريخية هامة ، هما ميخائيل السّرياني[2] (بطريرك من 1166 إلى 1199 م) وأبو الفرج بارهبراوُس[3] Bar Hebraeus (1226–1286 م) .

كذلك أيضاً كانت هناك موجودية لموارنة جبل لبنان ، الذين التحقوا في عام 1181 م بالكنيسة الرومانية . وكان للسوريين ذوي المذهب اليوناني (الرّوم) الأغلبية في المدن ، حتى أنطاكية نفسها . وكان كل هؤلاء السوريين المسيحيين يعاملون على قدم المساواة الحقوقية مع الطبقة البورجوازية الفرنجية ، وكانوا

---

(1) يرد اسم هذا المؤرخ الفرنسي في المصادر العربية المترجمة : فولتشر أوف تشارترز ، ولا ندري من أين أتوه بهذه الصيغة الإنكليزية في لفظ اسمه . وشارتر كما يتضح أعلاه اسم مقاطعة على نهر اللوار ، تبعد عن باريس 96 كم إلى جنوبها الغربي .

(2) من مهازل الترجمة أن هذا المؤرخ الشهير قد ترجم بعضهم اسمه إلى العربية عن الفرنسية Michel le syrien بعبارة : ميشيل السوري ، غير عارفين أن كلمة les syriens حتى القرن السابع عشر كانت تعني السريان ثم استعيض عنها في الفرنسية بـ les syriaques .

(3) هو غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري ، صاحب كتاب «تاريخ مختصر الدول» .

محكومين حسب أعرافهم الخاصة من قبل حاكمهم الخاص ، الذي يُسمى «الرئيس» *le rais* .

وكان الأرمن بوجه الخصوص كثيري العدد في كونتيّة الرُّها ، حيث - كما رأينا - شاركوا بشكل محدود في أمور السلطة الفرنجية ، وحيث كان البارونات والفرسان الفرنجة يتزوّجون في الغالب من نساء أرمنيات . ومن جهة أخرى ، كان الزواج بالأرمنيات عُرفاً متّبعاً لدى كل السلالاّت الحاكمة الفرنجية ، ففي القدس مثلاً ، سرعان ما أضحت سلالة بودوان أسرة فرنجية - أرمنية .

أما فيما يتعلق بالعنصر الإسلامي ، فقد بقي بطبيعة الحال مستفرداً بنفسه . ومع ذلك ، فبالرغم من الهوّة الدينية العميقة وحالة الحرب شبه الدائمة بين الطرفين ، انطوت حياة الدول الصليبية على حد أدنى من التسامح المتبادل . وترينا السيرة الذاتية لحياة الأمير أسامة[1] ، في السنين الممتدة بين 1137-1143 م ، بخصوص التحالف المنعقد بين الملك فولك Foulque وحاكم دمشق بالوصاية ، كيف نشأ بين البارونات الفرنجة والأمراء المسلمين نوع من الصلات تتسم بروح الفروسية الشهمة العالية .

وكذلك يروي الرّحالة العربي ابن جُبَير عام 1183 م ، أن القرويين المسلمين كانوا يعيشون في حالة من الرضا والسّعة تحت الحكم الفرنجي[2] . وربما كان يصل هذا التسامح إلى حدّ اقتسام بعض المباني المشيّدة بين الديانتين ، فترى نصفه الواحد كنيسة ونصفه الآخر مسجداً .

---

(1) هو الفارس والأديب الشاعر أسامة بن منقذ الكناني ، صاحب كتاب «الاعتبار» الذائع الصيت ، الذي يعتبر أحد أهم وأمتع المصادر العربية عن فترة الحروب الصليبية . صدرت منه طبعة قديمة عام 1930 عن منشورات جامعة پرنستون في أميركا ، بعناية فيليب حتي . غير أنه يستحق أن ينشر من جديد بطبعة وافية .

(2) كتب ابن جبير في رحلته المشهورة (ص 260) : ومن أعجب ما يُحدَّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربّما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين والنّصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . واختلافُ القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكّة كذلك وتُجّار النصارى أيضاً لا يُمنَع أحد منهم ولا يُعتَرَض . وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدّونها في بلادهم ، وهي الأمَنَة على غاية . وتُجّار النصارى أيضاً يؤدُّون في بلاد المسلمين على سِلَعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال . وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية ، والدّنيا لمن غَلَب .

لم يكن الفرنجة بقادرين على بسط سيطرتهم على الموانئ السورية الفلسطينية إلا بفضل معونة الجمهوريات الساحلية الإيطالية ، فقد ساعد الجنويون في انتزاع عكّا من المسلمين (عام 1104 م) ، وكذلك جبيل (1104 م) وطرابلس (1109 م) ، وأسهم الجنويون والپيزيون في الاستيلاء على بيروت (1110 م) ، أما البنادقة ففي الاستيلاء على صيدا (1110 م) وصور (1124 م) .

وكمكافأة لهم على ذلك ، حصل هؤلاء في المدن المذكورة على امتيازات تجارية كبيرة . وفيما بعد ، أضحى لكل واحدة من هؤلاء الجمهوريات الساحلية في جميع المرافئ الكبرى حيّها التجاري الخاص مع فندق *fondaco* (أي عنبر للبضائع مع دكاكين للبيع) ، كما تمتّعت بسلطة قضائية قنصلية وحصانات إدارية وضرائبية ، مما أدى إلى جعل هذه الأحياء بلدات حقيقية ذات حكم ذاتي . وكان الحي على هذا الشكل مداراً بيد قائم بالأعمال قادم من الوطن الأم ، يحمل لقب ڤيكونت vicomte (نائب الكونت) ، أو لقب باييل baïle[1] أو قنصل .

وللأسف ، حملت هذه المستوطنات الإيطالية - كما رأينا - معها إلى سورية جميع المماحكات المعهودة المستعرة فيها ، مابين الپيزيين والجنويين من جهة ، وما بين الجنويين والبنادقة من جهة أخرى . وقد مرّ بنا آنفاً ذكر أشدّ هذه الصراعات دموية ، وهي حرب سان سابا (انظر الفصل الثاني- فقرة : التفرقة الفرنجية) .

قامت هذه المنافسات على أسس تجارية ، وكانت موانئ سورية الفرنجية قد اكتسبت لدى نجاح الحملة الصليبية الأولى ، أهمية اقتصادية من الطراز الأول . ومن هذه الموانئ باتت أوروبا تتزوّد بالمنتجات الآسيوية ، وفي البداية اقتصر الأمر على المنتجات المحليّة : ففي الساحل اللبناني والصوري كانت زراعة قصب السكّر ؛ وأما صُور وطرابلس وأنطاكية فقد كانت تصنع الحرير المقصّب (البروكار) والأقمشة الحريرية المشهورة المعروفة باسم الديباج *cendals* و البروكار سبع ملوك *samits* ، إلخ .

---

(1) الباييل لفظة فرنسية ذات أصل إيطالي : Bali أو Balivo ، مصطلح تاريخي قديم يعني : المحافظ .

وأما المرافئ السورية ، بوجه خاص ، فقد أضحت الأسواق التي زخرت بكل المنتجات المستوردة : الأنسجة القطنية والموسلين من بلاد الرافدين (العراق) أو إيران ، والسجّاد من آسيا الوسطى ، والتوابل والأحجار الكريمة من الهند ، والحرائر من الشرق الأقصى ، وشتى البضائع القادمة عن طريق تبريز أو البصرة أو عدن ، والواصلة إلى طرابلس أو صُور أو عكّا .

الفنون والآداب في سورية الفرنجية

يلاحظ الدارس أن فن العمارة الرومانية في سورية الفرنجية في القرن الثاني عشر ، يرتبط إلى حد كبير منه بعمارة المدارس في جنوب فرنسا (أي منطقة الميدي le midi) ، وذلك وفق الطراز اللانگدوقي[1] والپروڤنسالي ، بالإضافة غالباً إلى مؤثرات بورگينيّة . أما فيما يتعلق بكنيسة القبر المقدس فهي تمثّل طابعاً مركباً ، وذلك لأن الصرح البيزنطي القديم قد تم تحويله إلى كنيسة رومانية «وفق ترتيب رينانى ، ولكن على طراز هو بالأحرى فرنسي» . وتم تدشين البازيليكا الجديدة في 15 تموز عام 1149 م . ويذكرنا مدخل الواجهة الجنوبية ، نوعاً ما ، بنمط المدارس الشائع في پواتو[2] Poitou .

ظهر الطراز القوطي بعد سقوط القدس (1187 م) في فترة عكّا ، فكنيسة السيدة في طرطوس مثلاً ، هي كنيسة رومانية من القرن الثاني عشر ، ولكن تيجان الأعمدة وأقفال الأقباء فيها ، والتي تعود إلى الترميم الجاري في القرن الثالث عشر فهي قوطية ، وفيها بعض التفاصيل التي تذكرنا بعمارة رانس Reims .

أما الأدب الفرنجي السوري فقد وصلنا خاصة من مؤرّخي الحوادث ، ومن بين المؤرخين المقيمين في سورية والذين كانوا يكتبون باللاتينية نذكر فوشيه دى شارتر Foucher de Chartres ، الذي ترك لنا تاريخاً حيّاً هاماً للأحداث الواقعة بين 1100 و 1127 م[3] ، وگوتييه دى شانسلييه Gautier de Chancelier ، الذي روى لنا مآثر روجيه Roger أمير أنطاكية وموته البطولي (بين 1115–1122 م) .

---

(1) نسبة إلى Languedoc ، مقاطعة من فرنسا القديمة تشمل جزءاً من كونتية تولوز .

(2) پواتو Poitou : مقاطعة في غرب فرنسا .

(3) عنوانه : Foucher de Chartres: *Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium.* نشره هاگنماير H. Hagenmeyer في هايدلبرك بألمانيا عام 1913 .

وأخيراً ، نذكر گيّوم الصُّوري[1] Guillaume de Tyr العالم الحجّة في اللغة اللاتينية ، والمستشرق البارع والسياسي المحنّك ، الذي ندين له بتاريخ هو غاية في التقصّي ويتسم بطابع علمي ، حول سورية الفرنجية منذ الحملة الصليبية الأولى حتى عام 1183 م .

ومن بين المؤرخين الذين كتبوا نصوصهم باللغة الفرنسية ، نذكر المذيّلين على تاريخ گيّوم الصوري (أي التاريخ الحولي المنسوب لإرنو Ernoul ، ولبرنار الخازن Bernard le Trésorier ، الذي يتضمن تاريخ سورية الفرنجية حتى عام 1231 م) . وبشكل خاص نذكر فيليپ دى نوڤارا Philippe de Novare ، الذي ترك لنا سرداً مفعماً بالحميّة عن الحروب القائمة بين الإمبراطوريّين وبين أعوان آل إيبلان Ibelin خلال الأعوام 1228-1243 م[2] .

ومن بين القصائد المؤلفة عن الحملة الصليبية الأولى ، يتساءل المرء إن كانت «أنشودة أنطاكية» *la Chanson d'Antioche* قد وُضعت في سورية نفسها أم بنواحي منطقة الموز[3] Meuse ؟ وأما الأنشودة المعروفة باسم «أنشودة الأعجاف» *la Chanson des chétifs* ، التي يرتبط موضوعها كذلك بحصار أنطاكية عام 1098 م فقد أُلّفت قطعاً في سورية ، حوالي عام 1140 م . وأخيراً ، فهناك مقاطع شعرية متناهية الروعة لدى المؤرخ فيليپ دى نوڤارا ، المذكور سابقاً .

إن المجتمع الفرنجي الذي وصفه لنا هؤلاء المؤرخين وهؤلاء الشعراء يبدو لنا بالأخص في القرن الثالث عشر ، مزدهراً ومتحضراً لأبعد الحدود . ويتجسّد مثال الفروسية بهذا المجتمع في شخصية جان ديبلان Jean d'Ibelin «سيّد بيروت العجوز»[4] (توفي 1236 م) ، فبعزّة نفسه واعتداده بالشرف والحق وبحكمته

---

(1) كان گيّوم أسقفاً لصُور ، ولد في سورية الفرنجية حوالي عام 1130 م وتوفي حوالي عام 1186 م . يصرّ كل مؤرخينا قاطبة على كتابة اسمه : وليام الصوري ، وكأنه كان من بني الإنكليز ، وهو الفرنسي ابن الفرنسي . أما كتابه الشهير المعنون باللاتينية : *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum* ، ومعناه بالعربية : «تاريخ المآثر المنجزة فيما وراء البحار» ، فيصرّون على جعله بالإنكليزية بغير وجه حق :
A history of Deeds Done Beyond the Sea.

(2) عنوانه بالفرنسية : *Gestes des Chiprois* .

(3) الموز : منطقة على نهر اللّورين شمال شرق فرنسا .

(4) بالفرنسية : le vieux sire de Beyrouth .

الفطرية الرفيعة ، وعندما يقتضي الأمر سخريته المرهفة التي تلقى الاستحسان لدينا ، من بين هذه النخبة المتأدّبة التي تغنّى بها لديه فيليب دى نوڤارا ، يمثّل «سيّد بيروت العجوز» طراز الفارس الكامل ، كذلك الطراز الذي تمثّلته فرنسا في شخصية القديس لويس .

الإنجاز الحضاري الفرنجي في سورية

بموجب ما تقدم ، شهدت سورية الفرنجية خلال المئة والثلاثة وتسعين عاماً التي امتدت فيها (1098-1291 م) حضارة «لاتينية» باهرة ذات صبغة فرنسية بوجه أخصّ . لقد أدّى تقدّم أنظمة الحكم والفنون والآداب إلى إقامة حياة نشطة تخصّنا مظاهرها بشكل مضاعف ، سواء كجزء متمّم لعالمنا الغربي القروسطي[1] أو كحياة مقتبسة في الوسط الشرقي .

لقد كانت سورية الفرنجية في الواقع «مستوطنة» نمت فيها دولة ذات طابع خاص ، بالرغم من السيل غير المنقطع للوافدين الجدد من الصليبيين ومن الحجّاج ، هي دولة ذات طابع «كريولي»[2] هجين ؛ والتنافر الذي ظهر واضحاً بدءاً من الحملة الصليبية الثانية بين الصليبيين وبين «الأمهار» يؤكد هذه المفارقة السريعة . لقد توقف نموّ هذه الدولة على الفور بكارثة عام 1291 م ، ولكننا نرى في تاريخ مملكة آل لوزينيان في جزيرة قبرص - في بعض النواحي - حتى أواخر القرن الخامس عشر التتمّة النهائية لهذا النمو .

* * *

(1) القروسطي : عبارة عُرّبت عن الفرنسية médiéval (المشتقة من Moyen Age) ، وتعني ما هو منسوب إلى القرون الوسطى .

(2) كريولي نسبة إلى الفرنسية créole : لقب يطلق على الأشخاص الفرنسيين من العرق الأبيض المولودين في إحدى المستعمرات الفرنسية ، وبخاصة في جزر الأنتيل وگيّانا (تكتب عادة بالغلط غويّانا) .